كنز من كنوز الجاحظ

اربع رسائل من رسائله

— ٤ —

تتمة ما كتب عن الرسالة الثالثة

التي موضوعها (الجد والهزل)

بقي من تعاليقنا على رسالة الجد والهزل ما يتعلق بالأبحاث اللفظية وما يتخللها من الفوائد اللغوية . من ذلك :

قوله ص ٦٢ (ولا هذه المطالبة من شكل هذه الجريمة) معنى المطالبة متابعة غيرك بحقٍ لك عليه ولم يكن صديق الجاحظ يتابعه بحق وإنما يتجنّى عليه بذنبٍ لم يفعله فهو يعاقبه ظلماً . ويغاضبه هضماً . فمن ثَمَّ كان الصواب (المعاقبة) أو (المغاضبة) مكان المطالبة .

وص ٦٦ قوله : (وصداقة المستطرَف غرر) المستطرَف المستحدث من الأشياء وقد استعمله الجاحظ في معنى المستحدث من المعارف والأصدقاء يقول : كن من صديقك الجديد على حذر حتى اذا بلوت امره وانعمت تجربته استوثق به ، واتكل عليه وان لم تفعل كنت منه في غرر وعلى مدرجة خطر . فالمستطرف في هذا المعنى من طرائف كلم الجاحظ . واعاد ذكره في ص ٩٤ فقال : ما قبّح الرجال شيء كالوِكال ، ولا أفسد الكريم شيء كحب الاستطراف) والوكال أن يتكل على غيره في شؤون حياته . ومعنى كون الكريم يفسده حب الاستطراف ان يملّ اصدقاءه القُدامى ويسأم عشرتهم فيجفوهم ويعرض عنهم الى صديق جديد يهشّ اليه ويمنحه ثقته ويفرشه دخلته قبل ان يبلوه ويختبر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

احواله . وقوله : (التتابع والتبرع) صوابه (التترع) بتاءين وهو التسرع الى الشرور فيناسب (التتابع) الذي معناه التسارع في الشرور أيضاً وان يركب الأمور من غير تثبت . ويأتي في ص ٩٢ سطر ٢ المتبرع صوابه المتترع بتاءين من التترع في الشر بدليل السياق .

وقوله ينصح في التوثق من اتخاذ الصديق والانتباه الى (فحته عند التقريع ، وحيائه عند التعريض ، والى فطنته عند الرشق والتودية) صوابه (التورية) بالراء ليناسب التعريض أي تأمل في اخلاق من تتخذه صديقاً لحين رشقه الناس بلسانه وطعنه عليهم وهل هو في ذلك يصرّح او يعرّض ويكني ويورّي ، او يهتك الأعراض ويعرّي ؟ ؟

وقوله ص ٦٨ في تلمّس أسباب التثبت في أمر الأصدقاء وذلائل الثقة بهم (وتكامل هذه الدلائل وتعاون هذه البرهانات) جمعَ (البرهان) على برهانات وعهدي أنه استعمل هذا الجمع ايضاً في كتابه (البيان والتبيين) كما استعمل جمع الوجدانات جمعاً لوجدان وشؤونات جمعاً لشؤون .

(وقد قال الأول : دلائل الأمور أشدُّ تثبيتاً من شهادات الرجال ... لأن الدليل لا يكذب ولا ينافق اولا يزيد ولا يبدل . وشهادة الانسان ليس معها أمان الخ ..) وكلام الجاحظ هذا يتسق مع القوانين والأنظمة العصرية المعول عليها في المحاكم الجزائية ، فانهم يعتمدون في ايقاع الاحكام على (قرائن الأحوال) التي عبَّر عنها الجاحظ بقوله (دلائل الأمور) ولا نعلم إن كان قضاتنا يستحسنون العدول عن اصطلاحهم الى اصطلاح الجاحظ .

وقوله ص ٦٩ (ولا خير في عقوبة تشمت العدو القادم ويُنادي بها العدو الحادث) الظاهر من مقابلة (القادم بالحادث) أنه أراد به (أي بالقادم) اسم الفاعل من قدُم اذا مضى على وجوده زمن لكن اسم الفاعل منه قديم وقُدام لا قادم فلعله محرف ، أو ان الجاحظ اراد المزاوجة اي الموافقة في الصيغة بين كلمتي القادم والحادث . وكثيراً ما فعله البلغاء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقوله ص ٧٠ (والريث والأناة في بلوغ الأمل وإدراك النعمة) الأصوب البغية مكان النعمة .

وقوله ص ٧١ (قال الدهقان لعامل خراسان حين مرّ به وهو يدهق في حبّه) الدهقان عند الأعاجم مقدّم فلاحي القرية فهو بمنزلة مختار القرية في عصرنا وكان الدهقان حين مرور العامل عليه يدهق حب حنطة البيدر اي يقطعه ويكسره يعني بدرسه ويدوسه بالنورج لينفصل عن التبن وأرى ان جعل الدهق بهذا المعنى تكلف وان كان ابن الاعرابي قال كما في الصحاح ان الدهق يكون بمعنى القطع والكسر . وعندي ان المراد من كون الدهقان (يدهق) في حبه أنه يقوم بوظيفته في حراسة غلة بيادر القرية ودراس حنطتها ليؤدي ما عليها من حق بيت المال للعامل . ووظيفته هي الدهقنة كما في القاموس . ودهقنوه جعلوه دهقاناً ، ويكون اشتقاق فعل دهق من الدهقان مثل اشتقاق فعل هندس من المهندس وفعل نورز من النوروز . ولا يبعد ان يكون فعل (يدهق في حبه) محرفاً عن (يدهقن في حبه) .

وقوله : (ظلمتَ بالبطش والغشم أو ظلمتَ بالدَحْس والدسّ) قال مصحح الرسالة لعل صواب الدحس (الدعس) بالعين . وعندي أن الدحس بالحاء هو الصواب لأن (الدعس) الطعن والوطء ولا ينسجم معناه هذا مع (الدس) الذي معناه نقل الحديث خفية بقصد الفتنة وافساد ذات البين . والدحس والدس شيء واحد . ورحم الله الذي قال :

(وان دَحَسُوا بالشر فاعف تكرّماً وان خَنَسُوا عنك الحديث فلا تسلْ)

ومعنى خنسوا الحديث اخفوه وستروه .

وقوله ص ٧٤ في صدد العناية بالكتب (وتقدمتَ في استجادة الجلود ، وتمييز الصناع ، وتخيّر الساعات) معنى تقدمت في كذا امرت به . وكلمة (الساعات) لا علاقة لها بجلود الكتب وصنّاعها المجلّدين وأرى انها محرفة عن (الساجات)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

جمع (ساجة) وخشب شجر الساج اسود رزين لا تكاد الرطوبة تبليه فكانوا يتخذون منه دفتين للكتب كما يتخذونها اليوم من الورق المقوّى . وفي مكتبتي نسخة مخطوطة من كتاب (مراصد الاطلاع) كانت دفتاها من خشبٍ متين غير أني — وأنا في القدس — أعطيتها لمجلد يهودي وغفلت عن توصيته بإبقاء الخشبتين فبدّل بهما دفتين من الورق المقوى جهلاً منه او خبثاً ! !

وقوله : (احكمتُ شأني وجمعتُ اليَّ اقطاري) لا أرى حاجة الى جعل (أقطاري) محرفة عن أفكاري وإنما الأقطار جمع قطر بمعنى الجانب ، واقطار الفرس أو الجمل او الجبل كل ذلك جوانبه المشرفة . وكذلك اقطار الانسان :

(نميلُ على جوانبه كأنا نميلُ إذ نميلُ على أبينا)

ويكون جمع الأقطار كناية عن جمع الهمة والعزيمة والنشاط ويقولون (جمع فلان قطاريه) اذا تكبّر متغضّباً . ويشبهه جمع الازار يريدون به تشميره مذ يقولون فلان كميش الازار اي انه عزوم ماضٍ في امره لا يثنيه عنه شيء .

وقوله ص ٧٥ (وموقعه من الدين والفرض عظيماً) صوابه والعرض بشهادة سياق الكلام .

وقوله ص ٧٨ في ذم الكتب التي تتخذ قراطيسها من جلود بدل الورق (هي أنتن ريحًا واكثر ثمنًا وأحمل للغش واكثر خباطاً) الخباط الغبار . وقوله (ثمنًا) أي انها اغلى ثمناً . وارجح ان تكون (ثمنا) محرفة عن (ثخنا) مصدر ثخن اذا غلظ وصلب فهو ثخين : لأن المقام انما هو في ذم تلك الكتب فهو يقول انها ذات رائحة نتنة وذات ثخانة وغلظ يصعب معه حملها واستصحابها في الأسفار وأن تاجرها يغشك فيزعم ان جلود الكتاب كوفية مع انها واسطية ويبيعك اياها أحياناً على كونها واسطية مع انها بصرية بخلاف الكتب ذات القراطيس الورقية فإنه لا يتيسر وقوع الغش فيها .

وقوله (وعلى الجلود يعتمد في حساب الدواوين وفي الصكاك والعهود وفي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الشروط وصور العقارات) ولا يعتمد في ذلك على الورق كذا زعم ابن الزيات اما الجاحظ فيخالفه فيه . وما المراد يا ترى من قوله (صُوَر العقارات) ؟ هل كانوا يصورون العقارات في صكوك بيعها وشرائها ؟ أم ان للصور هنا معنى آخر او هي محرفة ؟ او لعل المراد بصورها وتصويرها تخطيط مساحتها وتحديد أجزائها واقسامها وسائر مرافقها فيكون المراد بصور العقارات ما نسميه في الشام خارطة البناء او خريطة البناء ومخطط البناء ويسمى في مصر (تصميم) وبالافرنسية Croquis أو Plan .

وقوله (وانكرتَ ان تكون الفارة الى الجلود أسرع بل زعمت انها الى الكاغد أسرع وله أفسد) الكاغَد بفتح الغين يريد به الورق الذي يكتب عليه وهو لفظ فارسي معرب . والوزير ابن الزيات أتى أمراً فرياً في نظر الجاحظ لأنه زعم ان الفارة تسرع الى اوراق الكتب فتقرضها وتعيث فيها اكثر مما تسرع الى الجلود . والحق مع الجاحظ لأن جلود الكتب اذا كان يسرع اليها النتن بسبب ما يلحقها من الرطوبة أحياناً — كما مر ذلك من قول الجاحظ — كان ذلك النتن مما يُغري الفارة بالجلود وتمزيقها بأنيابها . لا جرم ان للفارة التي نحتقرها وندعوها بالفويرة تارة وبالفويسقة تارة نصيباً من أدب الجاحظ ومن عنايته وعناية مناظره العظيم الوزير ابن الزيات .

وبمناسبة اصطناع الكتب من الجلود والكاغد أوصى الجاحظ بتمييز (القرآن) وتخصيصه باسم (المصحف) وان كان المصحف في اللغة اسماً لما يجمع من القراطيس المكتوبة بين دفتين فقال (وقد كان في الواجب ان يدع الناس اسم المصحف للشيء الذي جمع القرآن دون كل مجلد) وما زال عمل الناس جارياً بوصية الجاحظ الى اليوم .

وفي ص ٧٩ اتهم الجاحظ صديقه الوزير بانه يريد ان لا يكون للجاحظ ولد يحيي ذكره فيحوي ميراثه رجال السوء من المعدّلين (فقد رأيت صنيعهم في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مال المفقود والمناعة والوارث الضعيف ومن مات بغير وصية) لا يهمنا ان كان ما قاله الجاحظ في تهمة صديقه حقاً أو باطلاً وانما يهمنا ان نعرف مراده بقوله (والمناعة) وفي بعض النسخ (والصناعة) ولم يرضها المصحح وقال لعل الصواب (ومولى التباعة) ؟ وأحسن الكلمات الثلاث عندي هو (الضاعة) وتكون جمعاً لضائع كالصاغة في جمع صائغ والباعة في جمع بائع في نظير ذلك ويؤيده السياق ولا سيما قوله قبله المفقود فمال المفقودين والضائعين وضعاف الناس عرضة لتسلط الأشرار من معدّلي ذلك العصر ووكلاء دعاويه وقضاته . والمراد بالمعدّلين الشهود الذين يلازمون مصطبة المحكمة لتحمّل الشهادات .

وفي ص ٨٦ اذا تخلص العقل من سورة غضبه شعر براحة وطمأنينة وكان شأنه في ذلك شأن المخمور اذا صحا من سكره والمنهزم اذا عاد الى أهله والمقيّد حين يفك من قيوده (والمبرسم اذا افاق من برسامه) . البرسام ومثله السرسام كلاهما لفظ فارسي مركب من كلمتين ويدلان على نوعين من المرض . فالبرسام مرض صدري أو هو ذات الرئة والسرسام مرض دماغي من اعراضه حمى دائمة يرافقها سهر واختلاط ذهن ومن هذه الجهة كان من الأمراض النفسية أيضاً فالإفاقة التي ذكرها الجاحظ انما تتصور في مرض السرسام لا البرسام فصواب برسامه سرسامه وصواب المبرسم المسرسم وفي بعض اللهجات العامية الشامية (مسرسب) بالباء ويعنون به المصاب بشيء من ذهول وعته ووسواس يجعله ينفر من مخالطة الناس ويتجنب مساسهم والدنو منهم .

وقوله ص ٨٧ (وكتب عمر الى قضاته أن ردوا القرابات عن حَرّ القضاء فان ذلك يورث التضاغن) . (حَرّ القضاء) ان لم تكن محرفة عن حكم القضاء كانت كناية عن لذع القضاء وحرقته التي يشعر بها المحكوم عليه في قلبه . وفي المستدرك من معاني الحرّ حرقة القلب من الوجع والغيظ . ومن ذلك قولهم : وجد حرارة السيف والضرب والفراق . فلا بدع ان يكون لحكم القاضي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

حرارة في قلوب المحكوم عليهم . فعمر يوصي قضاته بأن يتجنبوا ايقاع الأحكام بين الأقارب فان الحكم مهما كان عادلاً لا بد ان يورث القلوب ضغناً وغيظاً دائماً فتبقى العداوة بين الأقارب الى ما شاء الله . وكان شيخنا محمد عبده يوصي القضاة من أصدقائه وتلاميذه بألا يصدروا حكماً اصلاً بين المتداعين أقارب كانوا او غير اقارب بل يعنوا باقامة الصلح بينهم مكان الحكم ويقول ان الحكم يقطع الوصل ويورث الاحقاد ويفسد ذات البين ويعرض المجتمع للخطر . ولا شيء أفضل من تقرير الصلح بينهم فإنه يلقي في المجتمع الطمأنينة والهدوء والهناءة والسلام . والمحاكم المسماة محاكم صلح في تشكيلات محاكمنا اليوم إنما اتخذت وسميت بالصلح لهذا الغرض الشريف وليتجنب الحاكم ما أمكنه الحكم وليؤثر الصلح واصلاح ذات البين .

وفي ص ٩٠ قوله (ولكنك استضعفتني وجعلتني فرّوج الرقا) رجح المصحح ان يكون صواب (الرقا) الرفّاء وهو الذي يرفو الثياب الممزقة فيكون الفرّوج بمعنى القباء الذي شق من خلفه فهذا القباء المسمى فروجاً اذا بلي اعطي الرفّاء ليرفوه ويصلح عيبه فهو ضعيف واهٍ . فضربه الجاحظ مثلاً لضعفه الذي اغرى به صديقه الوزير فغضب عليه ولجّ في عقابه . ولكن (فرّوج الرفاء) لم يشتهر استعماله بين البلغاء مضرب مثل في الضعف والوهن وانما المعهود في ذلك هو (فرّوج الرنقاء) اي فرخها و (الرنقاء) الدجاجة القاعدة على بيضها . فهذا الفرخ يضرب بضعفه المثل . قالت الزبّاء ابنة علقمة الطائي وقد اكرهتها أمها على الزواج بالحرث سيد بني اسد وكان شيخاً هرماً فتنفست يوماً وارخت عينيها بالبكاء وقالت (مالي وللشيوخ الناهضين كالفروخ) وعلى هذا يكون صواب (المرقا) (المرنقاء).

وقوله ص ٩٦ (وليس الصبر بالصمت والسكوت ولا بقلة الصياح والضمور ... وذو المخلب كله ضجور صياح . وذو الحافر كله كظوم ضاغن) والضمور بالراء صوابه والضموز بالزاي المعجمة بمعنى السكوت وهو مأخوذ من ضموز البعير اذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أمسك جرته في فيه ولم يجترّ . اما ضمور الفرس بالراء المهملة فهو هزاله ولا مناسبة له هنا . وكذلك قوله في ما بعد (ضاغن) وفي الأصل بالميم ضامن فصححه المصحح بالضاغن (وهو الفرس الذي لا يعطي كل ما عنده من الجري الا بالضرب) ولا نراه يلتحم مع ما قبله أيضاً . وانما صوابه ضامز بالزاي من الضموز وهو السكوت والكظم كما مر . وقوله (وسمن ذي الظلف عام وهو في الضأن أخفى) ذوات الأظلاف من الماشية يعم فيها السمن ولكنه في الضأن أخفى ولا معنى للخفاء هنا فصوابه احد لفظين : إما (اخظى) بالخاء والظاء المعجمتين من خظا لحمه اذا اكتنز فالسمن في الضأن — بواسطة العناية بالرعي والتغذية المتواصلة — يكون اكثر وأشد اكتنازاً . والثاني ان يكون محرفاً من (احظى) بالحاء المهملة والظاء المعجمة أي سمن الضأن اشد حظوة في نفوس الناس وأشهى اليهم من السمن في سائر المواشي .

وقوله ص ٩٧ (والبازي اكرم من الصقر ... وأعفى صيداً . وأنبل نيلاً) قوله (وأعفى) اي واكثر . وقوله (نيلاً) بالياء صوابه (نيلاً) بالياء المثناة وهو ما تناله من عطاء ونحوه يقال اصاب فلان من الأمير نيلاً فيكون المراد من النيل الصيد الذي يناله صاحب البازي من كسب البازي . أما (أنبل) بالباء الموحدة فمعناه ازكى وأنجب وأفضل . ومحصل القول أن ما يصطاده البازي أوفر وأزكى وأشهى مما يصطاده الصقر .

المغربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net